

سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

[فصل: في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: فالسنة تفسر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه، وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول، وحب الإيمان بها كذلك]. (الشرح) منزلة السنة من القرآن قوله: (فصل: في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فالسنة تُفسِّر القرآن...): نعرف أن العقيدة مأخوذة عن الوحيين: الكتاب والسنة، هذا هو الأصل في معتقد المسلمين، كما أن الأحكام متلقة عن الوحيين: الكتاب والسنة. والسنة هي: الوحي الثاني، وقيل: إنها وحي بالمعنى. وقد وصفها المؤلف هنا بأنها تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه. والمراد بالسنة: أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم القولية والفعالية، وكونها تفسر القرآن ظاهر، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي أنزل عليه القرآن، فإذا جاء تفسير القرآن عنه وجب الرجوع إليه، وقدم ذلك على كل تفسير، سواء كان تفسيرا لغوبا، أو تفسيرا بالرأي أو غير ذلك؛ وذلك لأنه صدر من منبعه، فحيث إن القرآن متلقي عن الرسول، فكذلك تفسيره يتلقى عنه. وأيضا فإن الله تكفل ببيانه له، فلا بد أنه ما ذكر من التفسير إلا ما ألهمه أو ما علمه. فالله تعالى أخبر بأنه سببته له في قوله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زَرْبِي عَلَمًا} [طه: 114] يعني لا تستعجل به. وفي قوله: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلْ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَأَيْضَعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: 16-19] المراد أن الله تكفل بأنه سببته، وي بيانه أما من حيث وضعه ولفظه، فالرسول عليه السلام يعرف معانيه: لكنه بالكلام الفصحى الذي يفهمه، وإنما بالتعليم بأن يبين له جبريل الذي نزل بالقرآن معانيه، فإذا جاء البيان عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه يقدم على كل بيان، وقد أمره الله بذلك، قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكَوْثَرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44] يعني تبيان لهم أحكام القرآن الذي نزل إليهم، وهذا تكليف، فدل على أن الله كلفه أن يبين ما نزل إليهم، فإذا جاء البيان عنه قدم على كل بيان. فمثلاً أمنا بالصلاه ومع ذلك لم يذكر في القرآن أوصافها كاملة، فلم يذكر في القرآن عدد الصلوات صريحاً، ولا عدد ركعات كل صلاه، ولا عدد سجادات كل ركعة، وإنما ذكر الله الركوع والسجود والقيام مجرد ذكر كما في قوله: {أَنْ طَهَّرَ بَيْتَنِي لِلطَّائِفَيْنَ وَالْعَاقِفَيْنَ وَالرُّكُعَ السُّجُودَ} [البقرة: 125]. وقوله: {وَطَهَّرْ بَيْتَنِي لِلطَّائِفَيْنَ وَالرُّكُعَ السُّجُودَ} [الحج: 26] فذكر القيام والركوع والسجود، ولكن لم يبين أكثر من ذلك. فمن أين عرفنا أن في كل ركعة سجدتين؟ ومن أين عرفنا أن القيام هو محل القراءة؟ ومن أين عرفنا أن كل ركعة لا بد أن تقرأ فيها الفاتحة؟ ومن أين عرفنا أن الركوع هو الانحناء المعروف، وأنه يسبح فيه بقوله "سبحان رب العظيم"؟ وأن السجود المعروف يكون على الأعضاء السبعة، وأنه يقول فيه: "سبحان ربى الأعلى"؟ ومن أين عرفنا أن الصلاة تحتاج إلى تكبيرات تنقل، وإلى تكبيرات تنتهي، كل ذلك غُرف من السنة، وكل ذلك هو البيان الذي قال الله فيه: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44]. ولهذا لما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيفية الصلاة قال لهم: {صَلُوا كَمَا رَأَيْتُمْنِي أَصْلِي} أخرجه البخاري برقم (631) في الأذان، باب: "الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة". عن مالك رضي الله عنه.. وكذلك الحج: فإن الله تبارك وتعالى ذكر أعمال الحج مجملة؛ فذكر الطواف ولم يبين عدد الأشواط، ولم يبين الإحرام ولا محظورات الإحرام، ولم يبين في القرآن زمن الوقوف بعرفات وأنه في اليوم التاسع، وأنه إلى الليل، وأنه يبدأ من أول النهار أو بعد الظهر، وأنه يجمع بعرفة بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم، وفي مزدلفة بين المغرب والعشاء جمع تأخير، لم يذكر الله ذلك بالتفصيل وغيره من السنة. ذكر الله عرفة بقوله: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عَنْدَ الْمَسْعُرِ الْحَرَامِ} [البقرة: 198] يعني مزدلفة ولم يذكر الوقت الذي يستمر فيه وبين ذلك في السنة، بيته النبي صلى الله عليه وسلم بفعله وقال: {خُذُوا عَنِي مَنَاسِكُمْ} أخرجه مسلم برقم (1297) في الحج، باب: "استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر...". عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. فعرف بذلك أن السنة تُبَيِّن القرآن وُتُفسِّرُه، وتعبر عنه، وتدل عليه، وتوضح مجده، وتمثله وهكذا. ثم قد يكون في السنة زيادات، أي أحكام زائدة جاءت في السنة الصحيحة فعمل بها، وليس العمل بها زيادة على الوحي، بل إنها من جملة الوحي، فمثلاً حرم الله في النكاح الجمع بين الآخرين، وجاء في السنة النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها، أو بينها وبين خالتها، وعلل ذلك بقوله: {إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ} أخرجه ابن حبان بهذه الزيادة (9 / 426) رقم (4116-إحسان) وفي إسناده أبو حريز مولى الزهرى ضعيف الحديث إلا أنه ثُوبَعَ حَسْنَ حَدِيثُه. فلتلي ذلك بالقبول. وهكذا الأحكام الكثيرة التي جاءت في السنة، تتلقى بالقبول ويعمل بها، ويعتقد أنها من الشرع ومن الدين، ومن ذلك الأحاديث الصحيحة الثابتة القوية التي وردت في صفات الله عز وجل، فإن أهل السنة والجماعة يقبلونها وينتسبون إليها صفات الله عز وجل، وإن كانت أحاديث آحاد مخالفين بذلك المتكلمين من المعتزلة وغيرهم الذين قالوا: أحاديث الآحاد إذا وردت بها صفات الله عز وجل فإنها لا تُقبل في العقيدة. وعللوا ذلك بقولهم: إن هذه الأحاديث الآحاد طنية، والطعن لا يدخل في العقيدة. نقول: ليس كذلك وإن كانت آحاداً فليست طنية بل هي يقينية، فال الصحيح أن الأخبار الآحادية تفيد اليقين، ولا تُنفي الطعن كما تقوله المعتزلة. فالمعزلة الذين ردوا أحاديث الصفات، ردوها بهذه الشبهة، وأنها ما تُنفي إلا الطعن، وأما أهل السنة والأئمة والسلف الصالح فهم يقبلونها ويقولون: كما تقبلون يا معتزلة أحاديث الأحكام، فكذلك يلزمكم أن تقبلوا أحاديث العقيدة، سيما وقد ثبتت ثبوتاً لا شك فيه ولا توقف ولا تردد وقد صدقها أهل السنة وتلقواها بالقبول.